العقل والفكر والإيمان

Mohamed Rabie

يسعى هذا البحث لتوضيح دور العقل والعلم والإيمان في الدول التي ما تزال تعيش في عصور ما قبل الصناعة عامة والدول العربية خاصة، لذلك سيكون التركيز على المجتمع العربي ودور العقل والدين الإسلامي فيه. ومع أنه من السهل على كل عاقل أن يفهم دور الخرافة والأسطورة والمعجزة في حياة كل دين، ويتفهم حاجة المؤمنين إليها في زمن غاب عنه العلم والفكر، إلا أنه من غير المقبول أن يقوم مؤمن بالتركيز على الأسطورة والخرافة بعد أن تجاوزت الإنسانية عصر الجهل والظلام، وانتقلت إلى عصر العقل والعلم والمعلومات والمؤسسات.

العقل والفكر توأمان لا يفترقان، يؤثر كل منهما في الآخر ويتأثر به بشكل متواصل؛ إذ فيما يقوم العقل بإنتاج كل فكر جديد، يتأثر كل عقل، خاصة عقول الأطفال والشباب، بالفكر الذي يسود البيئة الأسرية التي يولدون فيها، وبالمناهج التي يدرسونها في المدارس؛ كما يتأثرون أيضا بما يتعرضون له من أفكار ومعلومات ودعايات وإشاعات في الأماكن العامة مثل المكتبات والمقاهي والمساجد ووسائل الإعلام. ولهذا ليس بالإمكان فصل الفكر عن العقل، لأنه ليس بإمكان فكر أن يولد في عُزلة عن العقل، أو بعيدا عن تجربة الحياة التي يمر العقل بها، والبيئة الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية التي ينشط فيها ويتفاعل من خلالها مع عناصر بيئته العلمية والتكنولوجية والعملية. ولما كان من غير الممكن حدوث تطور في مجتمع من دون تفعيل العقل ومشاركته في عمليات التفكير والتخطيط، فإن العلاقة بين الفكر والعقل والبيئة بمكوناتها المختلفة كان لا بد وأن تقوم على مبادئ تحقق التكامل بين تلك العناصر. مبادئ يلتزم العقل بموجبها باحترام فكر الحاضر والماضي مع الاحتفاظ بحقه في مراجعة ذلك الفكر ونقده، ويحترم المجتمع حق العقل في حرية التفكير، ومراجعة كل فكر قديم، وإنتاج فكر جديد بناء على قراءته للماضي والحاضر والمستقبل.

ولما كان الفكر والعقل يعملان ضمن بيئة اجتماعية ثقافية وأخرى علمية تكنولوجية، فإن العقل والفكر لم يتوقفا يوما عن التأثير في البيئة الأولى والثانية، وتطوير عناصر كل منها للتوافق مع ما ينتجه العقل من فكر يراه ضروريا لتطوير الحاضر والتجاوب مع حاجات المجتمع. من ناحية ثانية، ساد الصراع أحيانا علاقة البيئة الاجتماعية والثقافية بالبيئة العلمية والتكنولوجية، ما جعل قدرة العقل والفكر على التأثير في الحاضر وصنع

المستقبل خاضعة لطبيعة ذلك الصراع ونتائجه. وفيما نجح العقل الغربي في التحرر من إملاءات البيئة الاجتماعية والثقافية التي نشأ فيها، وتطويع معظم عناصر بيئته العلمية والتكنولوجية للتجاوب مع المصلحة العامة، فإن العقل العربي والعقل المؤدلج فشلا في التحرر من إملاءات البيئة الثقافية والاجتماعية. وهذا جعل من السهل تجنيد معظم العقول في العالم العربي لخدمة مصالح القوى المهيمنة على الشؤون الثقافية والاجتماعية والسياسية، وتهميش المفكرين الذين ترفعوا عن خدمة الحكام والتجار وأصحاب المصالح الخاصة، بمن فيهم المهرجين من المأدلجين دينا وفكريا. الأمر الذي تسبب في تخلف الفكر في عامة الدول العربية وخروجها فكرا وثقافة واقتصادا وعلما من التاريخ الحضاري.

وبالعودة إلى الماضي عدة قرون وصولا إلى يومنا هذا، نكتشف أن العقل العربي تمت محاصرته وحرمانه من حرية التفكير منذ قرون، كما تم إقامة 5 أسوار عالية من حوله تمنعه من التفاعل مع المجتمع الذي يعيش فيه: سور اجتماعي؛ وسور إيماني، وسور سياسي، وسور تعليمي، وسور إعلامي. وفيما يقوم السور الاجتماعي بتكريس تقاليد بالية متوارثة منذ القدم، يقوم السور الديني بفرض نصوص مقدسة توجب الطاعة ولا تقبل النقد أو المراجعة. أما السور السياسي فيقوم بكبت الناس وقهرهم، وحرمانهم من حرية التعبير عن آرائهم، فيما يقوم السور التعليمي بفرض أسلوب الحفظ والنقل وليس النقد والتحليل على الطلبة. أما السور الإعلامي فيقوم بتضليل عامة الناس وتزييف وعيهم خدمة لمصالح نخبوية أو سلطوية أو تجارية خاصة. ومع فقدان الحرية وتشييد الأسوار من حوله، لم يعد العقل العربي فاعلا، علما بأن العقل الإسلامي كان مبادرا على مدار الثمانية قرون الأولى من عمر الإسلام، وذلك بأخذ فترة الأندلس في الاعتبار. لكن مجال فعل العقل حينئذ كان محدودا بسبب استبداد الدولة أولا، وفشلها في رعايته والاستفادة منه ثانيا، وفشلها ثالثا في تحويل العمل الفردي إلى عمل مؤسسي. الأمر الذي جعل قدرات العقل على التفكير وأخذ زمام المبادرة ضعيفة، اضمحلت تقريبا مع وصول الحكم العثماني إلى بلاد العرب وإحكام سيطرته عليها، وحرمان مثقفيها من حرية التفكير.

كانت الثقافة القبلية بعناصرها المختلفة، وفي مقدمتها التقاليد والأعراف والحكايات الشعبية ونظام التربية في البيت، وأسلوب تعامل أفراد الأسرة الواحدة والقبيلة الواحدة مع بعضهم بعضا، هو السور الأول الذي تم تشييده حول العقل. إذ كان أسلوب التعامل في البيت وبين أفراد القبيلة الواحدة تحكمه منظومة من القيم والتقاليد والأعراف التي تم تطويرها على مدى قرون وتكريسها في الوجدان الثقافي للمجتمع القبلي.

فأسلوب التربية في المجتمع القبلي يقوم على أسس ثلاثة: احترام الأعراف والتقاليد، الخوف من المجهول والبعد عن المغامرة، وإطاعة الصغير للكبير. وفيما تقوم التقاليد والأعراف بتعويد العقل على الكسل والتواكل، وذلك لأن التقليد والعرف يقوم بدور الفكر والقانون معا، يقوم الخوف من كائنات مجهولة لا وجود لها بحرمان العقل من حرية التجوال في عام الخيال، وإضعاف ثقته بنفسه. أما إطاعة الصغير للكبير دون معايير علمية أو ثقافية، فيفتح المجال للجهلة والعجزة للسيطرة على إدارة شؤون المجتمع؛ الأمر الذي يتسبب في تقليص دور العقل والعلم والمعرفة على السواء. أما الحكايات الشعبية فقد كانت سببا في تسلل الفكر الخرافي إلى الوجدان الثقافي للشعوب، وترسخها في وعي الفرد والمجتمع، ما جعل العقل أكثر ميلا إلى تصديق الخرافة وما له علاقة بالغيب من أمور، وأقل ميلا إلى تصديق المعلومة العلمية وما له علاقة بالفكر المتجدد. وهذا جعل نظرة الإنسان القبلي إلى قيمة العلم وأهمية الفكر تبدو صغيرة مقارنة بقيمة الخرافة وأهمية الغيب والأسطورة. لذلك أصبح من السهل على العقل أن ينقاد وراء من يزعم أنه يتحدث باسم قوى الغيب، ويطيع أوامرهم عن إيمان وطيب خاطر، فيما لا يعير نفس الأهمية لرجال الفكر والعلم، ولا لأفكارهم وعلومهم.

أما السور الثاني الذي تم تشييده حول العقل فجاء في صورة أساطير وخرافات ودعوة الناس إلى الإيمان بها، بوصفها ترتبط بالغيب وتستمد منه مصداقيتها، ما جعلها تمنح المؤمنين قدرا كبيرا من الراحة النفسية، إذ قامت الأساطير بتطمينهم إلى أن الإله الذي يؤمنون به ويعبدونه يقف معهم وسينصرهم على أعدائهم. إلى جانب ذلك، قامت الأساطير برفع معنويات المؤمنين، وزيادة ثقتهم بأنفسهم، وترسيخ إيمانهم بقدرة إلههم على عمل المعجزات من أجلهم؛ ولهذا كانت الأساطير والمعجزات جزءا عضويا من كل دين ظهر عبر التاريخ. لكن الشعور بدعم الإله للمؤمنين به كان سببا في إقناع أتباع كل دين تقريبا بالتميز عن غيرهم، وهذا تسبب في تزييف وعيهم، واتجاههم إلى التفرقة ضد أتباع الديانات الأخرى والتقليل من شأن معتقداتهم. ومع تزييف الوعي اختلطت الأمور على العقل المؤمن والمؤدلج على السواء، ما جعل من الصعب عليه أن يميز بين الدين والأسطورة والخرافة، وبين الوهم والحقيقة. نتيجة لذلك تم تحويل عقل كل مؤمن، بغض النظر عن دينه، إلى عقل إيماني خرافي، تشكل الخرافة والأسطورة جزءا هاما من مكوناته؛ الأمر الذي جعل من السهل على العقل هذا أن يؤمن بكل معلومة تصدر عن أولياء دينه، وكل ما يسمع من حكايات وأساطير توحي بعظمة دينه، وذلك بغض النظر عن مصدر تلك الحكايات والأساطير ومدى توافقها مع العقل وتجربة الإنسان عبر التاريخ.

تقول كتب الدين في بلاد المسلمين إن كافة تعاليم الإسلام صادرة عن قوة إلهية لا تُسأل عما تفعل، ولا يجوز لمؤمن أن يسألها عما تقول؛ وهذه تعاليم تشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ووجود الجن والشياطين، وغير ذلك من مخلوقات وأوامر ونواهي تتعلق بمختلف شؤون الحياة. الأمر الذي يعني أن الإيمان بوجود الله وجبروته أصبح واجبا مقدسا لا يجوز الشك فيه، علما بأنه ليس باستطاعة إنسان أن يرى الله أو يتواصل معه، أو يُثبت وجوده علميا أو عمليا، أو يَنفي ذلك الوجود بأي وسيلة كانت. ومع أن أوامر الله توجب الطاعة لأنها جاءت لتهدي الناس إلى عمل الخير ، إلا أن أثر الدين على عقل المؤمن كان سلبيا، إذ حرمه من حرية التفكير والتساؤل عن أمور كثيرة ذات علاقة وطيدة بحياته ومستقبله. وفي ضوء تكاثر الفقهاء واستحواذ معظمهم على سلطة التحريم والتحليل والتكفير، فإن سفك دم المشكك في الدين أصبح حلالا. ولقد تسبب هذا الموقف في تقزيم العقل، ليس فقط أمام النص المقدس، وإنما أيضا أمام أقوال فقهاء غلب عليهم التزلف للحاكم وإصدار فتاوي تجيز له الاستبداد والفساد. نتيجة لذلك تم تشييد سور إضافي من الكبت الديني إلى جانب الكبت الاجتماعي والثقافي حول العقل المسلم. ومع أن هناك مثل شعبي دارج في بلاد العرب يقول: "الله الناس ما شافوه، لكن بالعقل عرفوه"، إلا أن العقل الذي يتحدث عنه المثل الشعبي هذا لم يُسمح له أن يناقش قضية وجود الله حتى يتعرف عليه ويتقرب منه، إذ قام الفقهاء والحكام بإجبار العقل على الاعتراف بوجود الله، وإطاعة أوامره وأوامر من يمثله في الأرض من حكام وفقهاء من دون تفكير.

الدين والعلم

الدين والعلم مجالان مختلفان للحصول على المعرفة بكافة صورها، إذ يقوم الدين بسن أوامر ونواهي تنظم سلوك المؤمنين وتوحدهم حول قواسم مشتركة، وتزودهم بمعلومات تتعلق بحياة ما بعد الموت، علما بأن هذه المعلومات تقوم على ادعاءات لا يمكن إثباتها عمليا أو علميا. أما العلم فيقوم بتزويد البشر بمعلومات تقوم على حقائق كان العلم قد أثبتها عمليا مثل دوران الأرض حول الشمس. وفي ضوء نجاح العلم في تثبيت أقدامه على أرض الواقع وفي العقل الإنساني، فإن كل مؤمن وغير مؤمن وجد نفسه يعتمد كثيرا أو قليلا على الحقائق العلمية، خاصة فيما يتعلق بالحفاظ على الصحة، ومعالجة الأمراض، وطرق كسب العلم والمال. نتيجة لذلك، أصبح الدين بحاجة إلى علم يدعم ادعاءاته، فيما لا يحتاج العلم إلى دين يدعم حقائقه. الأمر الذي دفع بعض الفقهاء ممن درس العلوم الطبيعية إلى اللجوء إلى العلم لإثبات ما يدعيه القرآن من معجزات. لذلك أصبحت

محاولات توظيف العلم للبرهان على وجود شيء في القرآن لا وجود له، لا تتم إلا بتحريف العلم، أي تأويل النص القرآني المطلوب إثبات صحته. لكن التأويل هو محاولة للالتفاف حول نص قرآني أو حقيقة علمية لإثبات أمر يتعارض مع النص والعلم؛ الأمر الذي يجعل كل عملية تأويل ترقى إلى مرتبة التضليل لأنها تسعى لإقناع شخص بحقيقة أمر غير حقيقي. وهذا يعني أن تأويل العلم ليتوافق مع النص يؤدي إلى تزييف العلم وتضليل القارئ، كما يجعل تأويل نص ليتوافق مع العلم يؤدي إلى تزييف النص وتضليل السامع، وبالتالي لا يخدم إنسانا يسعى لمعرفة حقيقة دينية أو علمية لا تدور حولها الشكوك.

ويمكن القول أن الفرق بين فكر وموقف المعتزلة وفكر وموقف الأشاعرة والسلفية يلخص هذا النقاش في كلمات بسيطة. إذ فيما تقول المعتزلة إذا تعارض نص مع العقل، وجب تأويل النص ليتوافق مع العقل، تقول السلفية إذا تعارض العقل مع النص، وجب تأويل العقل ليتوافق مع النص. وإذا كان استخدام العقل في الماضي قد قُصد منه الفكر الذي ينتجه العقل، فإنه أصبح يعني العلم الذي ينتجه العقل أيضا وتثبته التجربة. لكن الحقيقة التي لا بد وأن يدركها كل من ينتصر لفكر المعتزلة أو السلفية، هي أن تأويل نص ديني ليتوافق مع العلم لا بد وأن يأتي على حساب النص وقدسيته، وأن تأويل حقيقة علمية لتتوافق مع نص ديني لا بد وأن يأتي على حساب الحقيقة العلمية. الأمر الذي يجعل عملية التأويل في الحالتين تسيء إلى الدين والعلم معا.

أما السور الثالث الذي تم تشييده حول العقل فهو نظام حكم بدائي لا يختلف كثيرا عن النظام الذي تأسس مع نشأة الدولة العربية التي قام الرسول بتشييد دعائمها، وقام عمر بن الخطاب بإيضاح سياستها وأهدافها، وقام معاوية بن أبي سفيان بتحديد صلاحيات رئيسها وعلاقته بالرعية. إذ قام النظام هذا على انفراد الحاكم برسم سياسة الدولة واتخاذ كافة القرارات، مع الاحتفاظ بحقه في استشارة من يرى ضرورة استشارتهم من الناس. وعلى سبيل المثال، لم تكن هناك جهة مخولة بمساءلة الحاكم عن أفعاله، ولا قانون يفرض عليه أن يمثل أمامها في حال اتهامه بارتكاب مخالفة توجب التحقيق؛ كما أنه لم يكن للدولة العربية طوال فترة حكم الأمويين والعباسيين دستور أو قانون بالمعنى الذي عرفه الرومان قبل وصول الإسلام. ومع أن بعض الحكام مالوا نحو العدل، إلا أن معظمهم كان ظالما ومستبدا، والكثير منهم كان فاسدا أخلاقيا وإداريا. ومع أن معظم الدول العربية لديها اليوم دساتير وأحزاب سياسية ومجالس نواب وقوانين ومحاكم، ومنظمات مجتمع مدني،

إلا أن الحال لم يتغير كثيرا عما كان عليه في العهود الغابرة، فحقوق الإنسان ما زالت مهدورة، ورئيس الدولة ما يزال فوق القانون، والفساد السياسي والاقتصادي ما يزال شائعا، والمؤسسات الفاعلة ما زالت غائبة.

من ناحية ثانية، كان رجال الدين هم الجهة التي مكنت الحكام من الانفراد في السلطة وممارسة الاستبداد؛ إذ أفتى الفقهاء بعد استيلاء معاوية بن أبي سفيان على الحكم بأن "من قويت شوكته وجبت طاعته"، كما قاموا بتفسير الآية التي تقول: "أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم" بأنها تعني أن على الرعية إطاعة الحاكم بعد إطاعة الله والرسول. ولما كان عرش الله غير موجود في الأرض وأن الرسول مات، فإن الحاكم أصبح يتمتع شرعا بسلطات الله والرسول. إضافة إلى ذلك، قال الفقهاء إن الثورة على الحاكم، حتى وإن كان ظالما، هي من المفاسد التي يجب الوقوف ضدها. ويشير التاريخ إلى أن معظم الفقهاء وقفوا دوما ضد العلم والعقل والحرية، وقاموا بتكفير معظم من تجرأ على نقد أقوالهم أو الاحتجاج على ظلم الحاكم، كما قاموا أيضا بالتركيز على العبادات وليس أخلاقيات المسلم ومسؤولياته تجاه مجتمعه وإنسانيته. وبذلك يكون الفقهاء قد أسهموا في شرعنة الظلم والفساد، ومحاصرة العقل، ونفيه من مجال الفكر وتكفيره أحيانا، وبالتالي حرمانه من المشاركة في توعية الناس بواجب الاهتمام بأمور دنياهم. وهكذا قام نظام الحكم في الدولة العربية، بالتعاون مع فقهاء السلطة بتشييد السور الثالث حول العقل العربي.

أما السور الرابع الذي تم تشييده حول العقل فقد جاء في صورة نظام تعليم غير خلاق، يقوم على التلقين والحفظ والنقل، وليس على النقد والتحليل. وهذا تسبب في إهمال ضرورة تدريب العقل على التدوين والتفكير، ما قاد العقل إلى الكسل واللجوء إلى التقاليد والأعراف والخرافات والقناعات الإيمانية، واستخدامها أدوات للتعامل مع مختلف أمور الحياة. وبذلك تم تحييد دور العقل في فهم إشكاليات الحياة، وحرمانه من المشاركة في حل ألغازها والإسهام في صنع المستقبل، ما جعل دور العقل ينحصر في احترام التقاليد التي توجب إطاعة أوامر الأب والأم في البيت، والامتثال لأوامر أستاذ المدرسة ورجل الدين ورجال الأمن خارج البيت. وبهذا يكون نظام التعليم قد التزم برأي ابن تيمية الذي يقول: "العقل أداة نقل وتنزيل وليس أداة فهم وتأويل". إلى جانب ذلك، يركز نظام التعليم على التراث بشقيه الثقافي والديني بوصفه حقائق لا يُطالها الشك، علما بأن التراث فيه الكثير من الظلم والفساد والاستبداد، والجهل والفقر، والخرافات المهينة للعقل والإنسان.

إن نظاماً تعليمياً يقوم على الحفظ والتلقين وكبت حرية الرأي، ويمنع الخروج عن النص، ويميل إلى اعتبار ما يأتي من السلطة الأبوية والاجتماعية والمدرسة والدولة أوامر توجب الطاعة دون نقاش، هو نظام يغذي الكسل العقلي والخمول الفكري والاستسلام لقدر تتحكم في تقريره أنظمة حكم مستبدة ومجتمع يغلب عليه الجهل. إضافة إلى ذلك، ينظر نظام التعليم إلى كل فكر قديم بوصفه أفضل من الفكر الجديد أو أكثر مصداقية؛ الأمر الذي يجعله يُسهم في محاصرة العقل منذ الطفولة، وتحديد مجالات فعله ضمن حدود ضيقة خلال فترة النمو، وإغلاقه قبل النضوج. إلى جانب ذلك، تقوم عمليات التركيز على التراث بإعداد الطالب والطالبة نفسيا لقبول المقولات السلفية من دون نقاش أو تساؤل باعتبارها مسلمات وحقائق مقدسة. إن كون نظام التعليم نظاما تقليديا يجعله بمثابة تقليد ثقافي واجتماعي متوارث يفرض على الصغير في السن احترام رأي الكبير حتى وإن كان جاهلاً، وعدم مراجعة الأب حتى وإن كان مخطئاً، وعدم الشكوى من السلطة حتى وإن كانت جائرة. إن رضوخ العقل لهذه التقاليد من شأنه برمجة العقل على قبول أمور وإطاعة أوامر تتناقض مع ما يقرأه في بعض الكتب ويراه على مواقع التواصل الاجتماعي، ما يجعله عقلا ضعيف القدرة على التفكير.

أما السور الخامس فهو سور الإعلام الذي تعود جذوره إلى اكتشاف فن الطباعة في منتصف القرن الخامس عشر في أوروبا. إذ بعد اتضاح أهمية الطباعة والكتاب اتجه الملوك والحكام إلى استخدام الكتاب لتزييف وعي المواطنين، وإحكام سيطرتهم على الشعوب. ومع أن الكتاب خرج عن نطاق هيمنة السلطة في القرن السابع عشر، ما جعله يقوم بدور كبير في نشر المعرفة، إلا أن الإعلام الحديث الذي تطور منذ منتصف القرن العشرين قام بدور أكبر في نشر المعرفة، ونقل الخبر وتحليله والتعليق عليه في الدول التي شاعت حرية الرأي فيها. لكن الأمور تطورت بسرعة خلال سنوات الحرب الباردة لتجعل وسائل الإعلام تركز على الدعاية والتمويه بهدف خداع العدو وإضعاف ثقته بنفسه، وتأليب بعض الشعوب ضد حكامها ونظم الحكم في بلادها. وتتم عمليات تزييف وعي الناس بالتركيز على قضايا دون غيرها واعطائها الأولوية في التعميم، وإهمال قضايا أخرى قد تكون أكثر أهمية؛ وهذا تسبب في تزييف وعي المستمعين في كافة دول العالم، وإن كان ذلك بدرجات متفاوته. وفي البلاد التي سيطرت عليها نظم حكم فردية وأيديولوجية، فإن الإعلام ولد فيها كأداة مسخرة بصورة شبه كاملة لتزييف وعي الجماهير وإقناعها بأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، وقيادتها إلى الإيمان بأمور لا تخدم مصالحها وإنما مصالح النخبة المسيطرة على السياسة والاقتصاد والمال والإعلام. وحين يتم تزييف وعي إنسان، فإن عقله يتصرف بناء على ما لديه من وعي مزيف غير علمي، الأمر الذي جعل الإعلام يقوم بتشييد سور

خامس حول العقل العربي. ومع كل سور يتم تشييده، تصبح مسألة تحرير العقل أكثر صعوبة، وتقدم الوطن أقل احتمالا، وحدوث نهضة مجتمعية سرابا يداعب العين، فيما يخدر العقل ويزيف الضمير.

الوعي حالة ذهنية تتبلور ببطء عبر تكرار حكايات محددة تقوم وسائل إعلامية موثوقة بالتركيز عليها دون غيرها؛ أو نتيجة لترديد مقولات عقائدية تخاطب قلب المؤمن قبل عقله، ما يجعلها تترسخ في وجدان الشعب المعني بوصفها حقائق ومسلمات لا تحتاج لتفكير أو برهان. وهذا يجعل من الصعب تصحيح وعي مزيف، لأن عملية التصحيح تحتاج لحقائق علمية وقناعات فكرية بديلة لما هو مترسخ في الوجدان الثقافي وغرسها في نفوس الجماهير التي تم تزييف وعيها. أما القناة الأكثر قدرة على تصحيح الوعي فهي نظام التربية في البيت، ونظام التعليم في المدرسة والجامعة؛ وهذان نظامان ليس لدى أي منهما الوعي بوجود هذه المشكلة، ولا كيف يمكن علاجها، ولا دوره في التعامل معها. لكن في حال الفشل في تصحيح الوعي، فإن من الممكن أن يعيش الوعي المزيف عقودا دون أن ينتبه له مسؤول أو مثقف ملتزم، ما يجعله يتحول إلى عقبة تحول دون تحرر الإنسان من الجهل، وتحرر الأوطان مما تعانيه من أزمات وتخلف يستعصي على الفهم.

ومع أننا تحدثنا عن قيام قوى مختلفة بتشييد أسوار على شكل حلقات حول العقل العربي بهدف حرمانه من حقه في التفكير بحرية، فإن الاسم الأفضل للتعبير عن تلك الأسوار هو "جدران"، لأنها توازي من حيث الظلم والقهر والإجرام جدار الفصل العنصري الذي أقامه الكيان الصهيوني الذي اغتصب حقوق الشعب الفلسطيني وما يزال يقتل الآلاف منهم سنويا ويعتقل العشرات يوميا. إن الجدران التي أقامها الكبت الاجتماعي والديني والسياسي، وجهالة نظام التربية والتعليم، وخيانة الإعلام لرسالته كانت اكثر ظلما وعنفا من أي جدار عنصري. إذ فيما يمكن إزالة جدران العنصرية بتحرير العقل وتنقية الضمير، لا يمكن تحرير العقل وتنقية الضمير إلا بهدم جدران الكبت الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي، وتطوير نظم التربية والتعليم، وإعادة هيكلة نظام الإعلام ومؤسساته، واخضاعها لرقابة الشعب وإدارة عقل حر وضمير حي.

الفكر والعقائدية

في ضوء الدور الهام الذي يلعبه الفكر في حياة كل مجتمع، فإن القوى المهيمنة على المجتمع قامت، وعبر كافة مراحل التاريخ، بالعمل على محاصرة العقل وإخضاعه لسيطرتها، وذلك لأن العقل هو الجهة التي تقوم بإنتاج

الفكر والعلم والمعرفة، وبلورة الآراء الخلاقة، وتوجيه الرأي العام، وتحديد مسارات التطور في مختلف مجالات الحياة. ولما كانت القوة التي هيمنت على حياة معظم المجتمعات قد اتصفت بميولها العنصرية أو منطلقاتها العقائدية، فإن الصراع بين الفكر المتحرر من قيود الكبت والفكر العقائدي لم يتوقف أبدا. وفيما نجحت الدولة العقائدية في محاصرة العقل وتهمشيه، وتوظيفه أحيانا لخدمة مآربها وشرعنة فكرها وتبرير فشلها، فإن الفكر المتحرر نجح في حالات أخرى في إعادة هيكلة نظم الحكم، وتصحيح المسارات السياسية والاقتصادية، وتقويض أسس الاستبداد، وتوفير قدر من العدالة الاجتماعية للشعوب التي ساندته.

تقوم الدعوة السلفية اليوم بالإسهام في إغلاق العقل المؤمن من خلال الادعاء بأنه ليس هناك من حل لمعضلة الأمة العربية والشعوب الإسلامية سوى العودة إلى الماضي والاستفادة من حكمته، واقتفاء آثار السلف من أئمة الأزمنة الغابرة. الأمر الذي يجعل الدعوة السلفية عملية لتمجيد فكر كان مسؤولا عن إحباط نهضة العرب والحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وزج الشعوب التي حكمها ذلك الفكر في أتون صراعات مذهبية لم تتوقف حتى يومنا هذا. وفيما بدأت بعض الشعوب الإسلامية تصحو من غيبوبتها وتتخلص من الصراع المذهبي، ما تزال الشعوب العربية مشغولة في صراعاتها المذهبية، ما يجعلها بحاجة لفكر جديد وإنسان جديد، وأنظمة حكم جديدة لتصحيح مسارها وإنقاذها من التخلف والتبعية.

من ناحية ثانية، تمثل دعوة العودة إلى الماضي محاولة يائسة لاستحضار تجربة حياتية موغلة في القدم، واستخدامها نموذجاً لإصلاح حاضر ليس له علاقة بالماضي، وبناء مستقبل يستوحي مكوناته من عصر القبلية وثقافته التي قامت على الغزو والقتل والنهب والسبي واستعباد المرأة. وحيث أنه ليس بالإمكان إدارة عقارب الساعة الزمنية إلى الوراء، وأن الماضي الذي يُراد استحضاره وتقليده مات منذ زمن بعيد، وأن تجربته مشكوك فيما جاءت به من ادعاءات، فإن الرجوع إلى الماضي يعني الضياع في متاهات تاريخ لا نعرف عنه سوى القليل، وإهمال حاضر يتخبط في الظلام، وعدم الاكتراث لاستحقاقات المستقبل بوعوده ومخاطره. لذلك تشكل دعوة العودة إلى الماضي محاولة لإعفاء العقل من مهمة التفكير في حاضره ومستقبله، والقبول بتجربة فشلت في زمنها في الحفاظ على حيويتها وهويتها ووحدة الشعوب التي قامت بتشكيلها. وفي الواقع، توجب الأمانة العلمية والأخلاقية أن نحاسب تلك التجربة على فشلها في مواصلة التطور، وعجزها عن صيانة وحدة المجتمعات التي قامت بإدارتها؛ فتجربة العرب الماضوية تتحمل مسؤولية ربما أعظم فشل في تاريخ الإنسانية. وهذا يعني أن

دعوة العودة إلى الماضي لن تنجح سوى في وأد حرية التفكير، وغض النظر عن أخطاء الماضي وجرائمه، وجعل ذلك الماضي الفاشل وفكره الجائر مرجعا نهتدي بظلامه وظلمه لتحرير أنفسنا من التخلف والاستبداد.

تقوم معظم الأطر العقائدية في العادة بتحديد ما يجب القبول به وما يجب رفضه من الأفكار والآراء، ما يجوز وما لا يجوز فعله من أعمال في المجال العام، مَنْ يجب على المؤمن أن يُرافقهم ويُصغي لآرائهم، ومن يجب عليه أن يتجنبهم ويبتعد عنهم، ومن تجب مناصرتهم ومن تجب معاداتهم من البشر. وهذه أمور تريح المؤمن من عناء التفكير في شؤون حياته، كما تريحه من مشقة تطوير مفهوم للزمن وتحديات الحياة؛ الأمر الذي يدفعه غالبا إلى إهمال ملكاته العقلية التي لم يعد هناك حاجة تستدعي اللجوء إليها أو العمل على تنميتها وصقلها، ما يجعله يتخلف عن زمنه، وفكر ذلك الزمن وعلومه يوما بعد يوم.

إن ما ينطبق على دعوات السلفية بوجوب العودة إلى الماضي وفكره، ينطبق أيضا على دعوات المؤمنين بالقومية العربية الذين يطالبون بوجوب قيام وحدة عربية على أسس سياسية انطلاقا من قناعة بأن العرب عاشوا حياتهم قبل الاستعمار الغربي في دولة واحدة، مع أن هذا افتراضا غير سليم. وكما أن السلفيين يتصرفون بوصفهم أوصياء على الدين من دون وصاية إلهية، يتصرف القوميون كأوصياء على الأمة العربية من دون وصاية جماهيرية. ولما كان من غير الممكن للسلفية ولا للقومية الادعاء بأنها الناطق الرسمي باسم الأمة العربية والحارس على موروثها الثقافي، فإن اتجاههم لإقامة سياج من أنفسهم وفكرهم يحمي مخلفات عصري البداوة والزراعة من تقاليد وأعراف وقيم عفى عليها الزمن منذ زمن بعيد يجعلهم أدوات لتكريس التخلف بدلا من النهوض وتحقيق الحرية والتقدم.

إن دعاة الحفاظ على التراث العربي من القوميين، ودعاة الحفاظ على التراث الإسلامي من السلفيين لا يقبلون البحث في أزمة التطور الحضاري التي تعيشها أمة العرب والإسلام، ولا في معالجتها من منطلق يأخذ البعدين الإنساني والمستقبلي في الاعتبار. وهذا يحرمهم من القدرة على إدراك حقائق الواقع، ويدفعهم إلى عدم التردد في إلصاق تهمة العمالة أو الإلحاد بكل مفكر يقول إن الموروث الثقافي كان أحد معوقات النهضة والتنمية. إن مما لا شك فيه أن موروث العرب الثقافي ذا علاقة وطيدة بحالة التخلف الراهنة التي تتصف بالتهرب من مسؤولية الهزائم العسكرية، والتقصير في مجالات الفكر والثقافة والعلم والتكنولوجيا، والتعثر في ميادين الاقتصاد والمال، والإخفاق في مجال التربية والتعليم وغيرها من ميادين الإنتاج الأدبي والفني.

إن من الأمور التي يعرفها المثقفون التقليديون وغير التقليديين جيداً أن الفكرة القومية والدعوة إلى الوحدة العربية انطلقت كرد فعل على التجزئة السياسية التي فرضها الاستعمار الغربي على العرب في أعقاب الحرب العالمية الأولى. ومع أن رد الفعل هذا كان سليماً من حيث المنطق والهدف، إلا أن القومية كحركة سياسية واجتماعية وثقافية فشلت في تحقيق أمر من أهدافها المنشودة في كل أرض حكمتها. فالفكر القومي لم ينجح سوى في رفع شعارات لم تقدم برنامجاً علمياً أو عملياً لتحقيق الوحدة والحرية، كما أن نظم الحكم التي انبثقت عنه لم تنجح إلا في كبت الحريات العامة، وتكرار الأزمات الاقتصادية، وتعميق أسباب التجزئة السياسية في بلاد العرب، وتكريس التخلف العلمي والتكنولوجي على أرضهم. ومع تعدد أسباب الفشل العربي، إلا أن إصرار القوى الأجنبية المعادية على جعل الفشل والتخلف أهم حقائق الحياة في ظل أنظمة الحكم القومية والثورية والتقليدية والعقائدية على السواء، وتعاون كافة نظم الحكم العربية مع الأعداء، بوعي أحيانا ومن دون وعي أحيانا أخرى، جعل التخلف والفشل يتحولان إلى حالة ذهنية مترسخة في وجدان الشعوب العربية، وكأن التخلف والفشل قدر إلهي لا يمكن تغييره، وبالتالي لا بد من قبوله والتعايش معه.

ويمكن القول أن أهم عوامل التخلف في البلاد العربية تكمن في ميل العرب عامة إلى العاطفة، والاهتمام بالمصلحة الشخصية والعائلية على حساب المصلحة العامة، ورفض المرحلية في تطبيق خطط التنمية، واعتبار محاكاة التراث معياراً للتقدم. ولما كان فكر القوميين فكر أصولي، وإن اختلف من حيث الأهداف عن الأصولية الدينية، إلا أنه فكر تجاوزه الزمن. ولقد جاءت ظاهرة العولمة بشقيها الاقتصادي والثقافي، وما تبع ذلك من تحولات ثقافية واجتماعية، وتطورات علمية وتكنولوجية على الساحة الدولية لتثبت فشل الفكر القومي والديني في استيعاب حقائق العصر ومتطلبات التعايش معه. وهذا يعني أن استمرار التيار القومي بالتمسك بالفكر القديم على قدمه، تسبب في اختصار دوره إلى دور "حراس القبور"؛ ما جعلهم عبارة عن مجموعة من الناس تسترجع بشغف ذكريات زمن فات ومات دون إنجاز يذكر، يبكون فقيداً عزّ عليهم فراقه، يُنظّمون الزيارات لضريحه، ويعيشون على ما تدره زيارات الفقراء والجهلة من أموال وصدقات.

ويقدم كُتيب "قطار الزمن" تحليلاً لأزمة هذا الفكر في صيغة رواية شعرية هي أقرب إلى المسرحية منها إلى القصيدة التقليدية. وتصف الرواية دور حراس القبور في خلق الأزمة التي بدأت بمحاولة التحرر من الاستعمار الغربي في خمسينيات القرن العشرين، وكيف تحولت تلك المحاولة البريئة إلى نظم حكم مستبدة وفاسدة،

والعمل الدؤوب على كبت الشعوب والمفكرين وتهجير العقول العربية الواعدة إلى الغرب. ومن ثم تقوم الرواية بتحديد موقع حراس القبور والشعوب العربية من حركة التاريخ. ولقد كُتبت هذه الرواية في عام 1997، ونشرت في بيروت عام 2000 . ويمكن للقارئ المعني أن يطلع عليها على موقعنا: www.yazour.com. وسوف يلاحظ القارئ أنه ليس من الصعب على مفكر يحسن متابعة الأحداث أن يقرأ المستقبل. فقراءة المستقبل أمر في غاية الأهمية بالنسبة لكافة الشعوب بسبب ما يعد به من وعود زاهية، وما يخبئه في جيبه من مفاجآت صادمة.

يُسهم التيار القومي اليوم في إغلاق العقل العربي من خلال التصدي لكل فكر يخالفه الرأي، حتى الفكر الذي ينادي بالعمل على تحقيق وحدة عربية انطلاقاً من المخاوف الأمنية المشتركة، والمصالح الاقتصادية المتبادلة. إذ فيما يرفع قادة التيار هذا شعارات براقة ولكن مفرغة لجذب الجماهير، يعملون على تكبيل الفكر الخلاق بقولهم أن هناك "خطوطاً حمراء" لا يجوز أن يتجاوزها عربي أو فكر. أما الخطوط التي يتحدثون عنها فليست سوى مقولات ثقافية ترى في التراث كنزاً لا يفنى، وفي التمسك به قوة لا تُهزم، وفي حكمته أداة للنهوض والتحرر. لكن حين تصبح المقولات الثقافية خطوطاً حمراء يحظر تجاوزها، فإن الثقافة تغدو شيئاً مقدساً، ما يجعل لها ولما ينبثق عنها من قيم وعادات وتقاليد ومواقف حقوقاً تتجاوز حقوق الفرد والجماعة وحقائق الواقع. لذلك أصبح دعاة القومية التقليديون يشكلون عقبة تحول دون تحقيق حرية الفكر وتحرير العقل من القيود التي تُكبله، فيما تسهم في كبت الإنسان العربي والاعتداء على حقوقه الإنسانية.

وفي الواقع، أصبح كل فكر تقليدي، سواء كان قوميا أو دينيا أو ماركسيا عبارة عن قلعة جميلة المظهر، خاوية الجوهر، تؤمن بنور التراث أو الخيال، وترفض الاعتراف بنور العقل وحكمة العلم. ومع حسن نية هؤلاء جميعا، وسلامة مواقفهم المبدئية من قضايا العدالة الاجتماعية والتحرر من التبعية للغرب وتحرير فلسطين، إلا أن سطحية فكرهم وتصدعه بسبب ثورتي المعلومات والاتصالات، وتراجع ثقتهم بأنفسهم في ضوء الإخفاقات المتتالية، جعل من الصعب عليهم الوقوف على أرض فكرية صلبة. وهذا قاد البعض منهم إلى الضياع في متاهات الفكر الغربي، فيما قاد البعض الآخر إلى اللجوء إلى بيت عقائدي أكثر قدما وأقل قدرة على مواجهة تحديات الواقع؛ الأمر الذي تسبب في تعرضهم إلى الانقراض ببطء والغياب عن مسرح الأحداث.

نظم الحكم العربية، بغض النظر عن منطلقاتها الفكرية وشعاراتها الوطنية، هي نظم فردية، يمكن تصنيفها إلى نظم تقليدية مكشوفة الوجه تحكم بدون دستور أو حتى شعار براق، ونظم عقائدية تحكم باسم

الدين فيما تعمل على خدمة مصالح النخبة الحاكمة دون غيرها، ونظم قومية تحكم باسم شعارات بلا محتوى، وبلا أدوات عمل علمية أو رؤية مستقبلية، ونظم مخادعة استعارت بعض مظاهر الحداثة من الغرب دون أقلمتها لتناسب الواقع العربي. الأمر الذي يعني أنه ليس لدى العرب نظام حكم واحد يسعى بوعي وإيمان إلى تحقيق العدالة وتوفير حرية الفكر والرأي والعمل السياسي، أو تحقيق نهضة شاملة في بلده. وقبل نهاية سبعينيات القرن العشرين، كانت نظم الحكم العربية قد استكملت بناء "مؤسسات القمع والتحكم" الرسمية، ما جعل قدرة المفكرين على نشر أفكارهم، وقدرة الشعوب على التنظيم والقيام بثورات قد تلاشت تقريبا.

أما أجهزة القمع والتحكم المعنية فهي خمسة: جيش منظم، وجهاز استخبارات، وبوليس أو شرطة، وبيروقراطية حكومية، وإعلام رسمي. جيش لحماية النظام وإرهاب الشعب وتخويفه، وليس لحماية الوطن من الأعداء؛ وجهاز استخبارات مدرب على أساليب التجسس على المفكرين والمثقفين والناشطين في مجالات العمل الاجتماعي والسياسي، وكبتهم واعتقالهم إذا استلزم الأمر، وتهجيرهم أحيانا من أوطانهم؛ وبوليس لإذلال المواطنين والاعتداء على كرامتهم وتذكيرهم دوما بأن كل حقوقهم وواجباتهم تتلخص في كلمتين: السمع والطاعة؛ وبيروقراطية حكومية جاهلة ومتعالية، مهمتها التحكم في مصائر الناس، وإهانتهم وحرمانهم من حقوق مشروعة؛ ومؤسسات إعلامية لتزييف وعي الجماهير وتخويفها، وإقناعها بأنه ليس بالإمكان أفضل مما كان. ومع الأيام أصبحت وسائل الإعلام مجرد أبواق دعاية للحكام والتجار والبضائع الأجنبية، ما جعل الجماهير العربية تتحول بسرعة عجيبة من منتجين متواضعي الإمكانات إلى مستهلكين جشعين، يلهثون بشكل مزري خلف مظاهر العصر ومغرياته المادية. نتيجة لذلك تحولت الدولة إلى جهاز يحسن تعميم الظلم والجهل والفقر وتزييف الوعي، ويسيء تحقيق العدل والإنتاج، ويحول دون إيقاظ العقل العربي من سباته.

نظم الحكم العربية عامة ما تزال تتعامل مع المفكر والمثقف بناء على قاعدة بسيطة تقول: "هو يفكر إذن هو خائن". أما الفكر السلفي القائم على إيمان ديني عقائدي فيتعامل مع ذات المفكر والمثقف بناء على قاعدة بسيطة تقول: "هو يفكر إذن هو مُلحد"، فيما يتعامل الفكر القومي التقليدي مع المفكر والمثقف من منطلق يقول: "هو يفكر إذن هو عميل". أما نظام التعليم العربي فيتعامل مع الطالب الذي يستخدم عقله ويسأل ويتساءل من زاوية تقول: "هو يفكر إذن هو متمرد". أربعة مواقف تتواجد معاً وتعمل سوياً دون تنسيق على إغلاق العقل العربي، وحرمان الإنسان العربي من الحرية، وتدمير احتمالات نهوض الأمة العربية وصولاً

إلى التصالح مع الذات، والتعايش مع العصر والاستفادة من إمكاناته، والإسهام في إثراء إنجازاته العلمية خدمة لمصالحها ومصالح البشرية جمعاء.

من الواضح ان السلطة السياسية تعمل بوعي على إغلاق العقل لأنه النافذة التي يتسلل نور القمر من خلف ستائرها ليكشف المستور من المؤامرات على مصلحة الإنسان ومستقبل الأوطان، وإغراق المواطنين في ظلمات الكبت والجهل. إن من يحصي عدد المفكرين والمثقفين الذين حُرموا من إيصال أصواتهم للشعوب العربية بسبب سيطرة السلطة السياسية على الإعلام، سوف يصاب باليأس والإحباط من إمكانية حدوث نهضة فكرية أو علمية في بلاد العرب. وتوضح هجرة العلماء العرب والمفكرين والمثقفين الباحثين عن الحرية إلى الغرب مدى التبعات الكارثية لعمليات الكبت والعزل والاضطهاد التي يتعرض لها أصحاب الفكر على يد السلطة ورجالها من انتهازيين وفقهاء. إذ فيما تؤدي العمليات هذه إلى حرمان العقل من فضاء الحرية وحرية التجوال في عالم الفكر والخيال والإبداع في وطنه، تعطي أنظمة الحكم فرصة جيدة لتجهيل المواطنين وتزييف وعيهم، وتحويلهم إلى قطعان من الغنم يقودها راعي يحمل عصاً غليظة، يستخدمها لبقاء القطيع موحداً تحت إمرته، يسير تبعاً لغريزة حيوانية لا يحركها عقل، ولا يوجهها علم، ولا يحكم مواقفها ضمير أو أخلاق.

إن اتجاه مؤسسات الإعلام التي تُسيِّرُها الدولة إلى تخويف بعض المواطنين وإقناع بعضهم الآخر بأمور لا علاقة لها بمصالحهم يسهم في تزييف وعي عامة الناس وإضعاف ثقتهم بأنفسهم. في المقابل، تقوم مؤسسات الإعلام التجارية بإضعاف قدرة الإنسان على الحكم على الأشياء ومدى فائدتها له، ما جعل ربح الشركات يأتي على حساب القيم والإنسان والوطن. وهكذا، بدلا من أن يكون الإعلام أداة توعية وتثقيف جماهيرية تُطلع الناس على ما يستجد من أفكار وحقائق علمية وتطورات على مختلف الأصعدة، أصبح الإعلام بشقيه الرسمي والتجاري أداة لإلهاء الجماهير وتضليل الشعوب. إلى جانب ذلك، أسهمت عمليات إلهاء الجماهير ببرامج ترفيهية تافهة، ودعايات هدفها الترويج لبضائع استهلاكية في تعزيز ثقافة الاستهلاك على حساب ثقافة الإنتاج، وتوجيه الشعوب إلى الاهتمام بالمادة على حساب القيم؛ الأمر الذي أدى إلى إضعاف الهوية الوطنية والقومية، وتجزئة المجتمع إلى مذاهب وفرق متنافرة لا يجمعها رابط، ولا توحدها مصلحة أو قضية.

الحرية الفردية هي السياج الأهم والسلاح الأقوى لمقارعة كل نظام مستبد، وكل فكر متطرف ومتخلف، كما أنها سور يحمي كل نظام حكم مستنير يحرص على مصداقيته ويعمل من أجل مصلحة شعبه ووطنه؛

فحرية الفكر والتعبير عن الرأي هي الضمانة الوحيدة لعدم وقوع نظام الحكم في أخطاء جسيمة تعود عليه وعلى الشعب بالكوارث، وأداة عصرية تضمن استمرار حيوية المجتمع ومراكز الفكر فيه. من ناحية أخرى، توفر الحرية الفردية والجماعية، ببعديها الفكري والاجتماعي، إطاراً مجتمعياً آمنا لحدوث تفاعل فكري وثقافي خلاق بين كافة أطياف المجتمع وفئاته، يقوم على احترام الرأي والرأي الآخر، ويسعى لإيجاد قواسم مشتركة تُوحد ولا تفرق، تُرحب بالتعددية الثقافية والدينية، وترفض العنصرية والتفرقة والإقصاء. وهذا من شأنه أن يحول دون نجاح قوى التطرف الأيديولوجية مهما كانت طبيعتها في تزييف وعي الجماهير والسيطرة عليها، كما تحول الحرية بمفهومها الشامل دون تمكين المتطرفين من إرهاب من يخالفهم الرأي من أصحاب الفكر. إلى جانب ذلك، تضمن حرية الفكر والتفكير والنشاط السياسي والاجتماعي والاقتصادي نجاح خطط التنمية، وعدم تخلف المجتمع عن العصر، وتعزيز قدراته على تحقيق النهضة والتقدم، والتحرر من التخلف والتبعية.

العقل عضلة لا تختلف كثيراً عن عضلات الجسد الأخرى، ما يجعل إهماله وعدم تدريبه على التفكير يتسبب في تحويله من ثروة إنسانية إلى عبء على نفسه ومجتمعه. فالعقل المدرب على التفكير يشكل المركز الذي يتعامل مع الإشكاليات المجتمعية بعلمية وواقعية، ويواجه التحديات بوعي وإصرار على النجاح. في المقابل، يتسبب إهمال العقل وحرمانه من التأمل في المعضلات الفلسفية، والتفكير في التطورات المستقبلية في تعويده على الكسل والتهرب من المسؤولية؛ الأمر الذي يجعله يتحول بفعل تقادم الزمن وشيخوخة الجسد إلى ثروة في طريقها إلى التعفن والضياع. إن الوسيلة الوحيدة لتنمية ملكات الإنسان العقلية، وتسليح العقل بالعلم لمواجهة التحديات وتجاوز الصعاب والمحن تكمن في تحريره من قيود الأيديولوجيا وكبت السلطة السياسية، ومكبلات التقاليد، وعقم نظم التعليم التي تقوم على الحفظ والتلقين، وتدريبه في المقابل على التفكير ومواجهة التحديات. وهذا من شأنه أن يفرض عليه أن يتجاوز نفسه بنفسه، ويكسر القوالب النمطية التي تكبله.

من ناحية ثانية، تفرض متطلبات التقدم والتحرر على المجتمع تعويد الأطفال وطلاب المدارس على القراءة والاستزادة من العلم، وتعويد العقل على التفكير والتأمل ومداعبة الخيال؛ وهذا بدوره يفرض على المدارس والنوادي الرياضية والثقافية والعلمية والمؤسسات العامة والخاصة أن تعمل على اكتشاف مواهب الأطفال، وإقامة مشاريع لتنميتها، وإطلاق الحرية للقدرات الشبابية الخلاقة ورعايتها كي تبدع وتسهم في إثراء حياتها وحياة مجتمعاتها؛ فهذه نشاطات من شأنها تخريج جيل بعد جيل من القيادات الواعية التي لا يمكن

لمجتمع طموح وعادل أن يحافظ على حيويته بدونها. كما لا يمكن لمجتمع يعاني آفات التخلف أن ينهض ويحقق ما يصبو إليه من تقدم بدون رعايتها وتطويرها، فالموارد البشرية هي التي تخلق الموارد المادية وتضمن استمرار عمليات التقدم، وليس العكس.

البروفسور محمد ربيع يحمل لقب أستاذ متميز في الاقتصاد السياسي الدولي؛ درس في 5 جامعات، وقام بالتدريس في 11 جامعة في أربع قارات. نشر حتى اليوم 58 كتاباً، 17 باللغة الإنجليزية، وواحد باللغة الألبانية، والباقي باللغة العربية. وتشمل الكتب الإنجليزية أربعة نشرتها دار: Palgrave Macmillan خلال 4 سنوات، 2013-2017 : إنقاذ الرأسمالية والديمقراطية؛ التحول الاقتصادي والثقافي العالمي؛ نظرية في التنمية الاجتماعية الثقافية والاقتصادية المستدامة؛ أزمة الديون العالمية وآثارها الاجتماعية والاقتصادية. أحد هذه الكتب، وعنوانه "تاريخ العنصرية" صدر في 7 لغات: الإنجليزية والألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والبرتغالية والبولندية. أما الكتب العربية فتشمل ثلاثة مجموعات شعرية، وروايتين، وقصة. والباقي كتب أكاديمية وفكرية وتأملات فلسفية، إضافة إلى عشرات الدراسات العلمية ومئات المقالات الفكرية.

الدكتور ربيع يرأس مجلس الفكر العربي في واشنطن، وعضو منتدى الفكر العربي، وزميل في مؤسسة ألكساندر فون هومبولدت الألمانية منذ عام 1992. وقد استطاع إكمال دراسته بالحصول على منح دراسية منذ المدرسة الثانوية حتى الحصول على الدكتوراه في الاقتصاد عام 1970من جامعة هيوستن في أمريكا. حائز على جائزة دولة فلسطين التقديرية على مجمل الأعمال الفكرية، وجائزة الجالية العربية في مدينة هيوستن للتميز الأكاديمي والقيادة، كما فاز بجائزة في الشعر في مهرجان تيتوفا في ماسيدونيا الجنوبية، وعدة جوائز أخرى حصل عليها من جامعات ومؤسسات عربية وأجنبية. وتعكس كتاباته ومواقفه ونشاطاته التزاماً بمبادئ السلم والعدالة الاجتماعية والمساواة والحرية والتنمية البشرية، فضلاً عن الاستدامة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والبيئية.

ولما كان شعاري هو : "المعرفة التي لا نشارك غيرنا فيها هي معرفة ضائعة، وأن المشاركة تتسبب في مضاعفة عدد المعرفيين"، فإنني أطلب من كل قارئ أن يوصي بكل دراسة وكتاب يُعجبه، لأنه بذلك يُساعد من لم يتعرف على الكتاب وما فيه من فكر مفيد. إننا جميعا نشترك في مسؤولية تغيير عالمنا ليكون أكثر ميلا للسلم والعدالة والحرية. وهذا هدف سامي لا يمكن تحقيقه دون أن نشارك جميعا في نشر المعرفة والوعي في كافة بقاع الأرض التي ورثناها وعلينا أن نحافظ عليها.

بروفسور محمد عبد العزيز ربيع

www.yazour.com

Links to Google Scholar, ResearchGate, and the encyclopedia.

https://scholar.google.com/citations?user=evo_c4QAAAAJ&hl=en&citsig=AMD79op143N3h2Qo7R_hDsZtzBuYxsGi6g

https://www.researchgate.net/profile/Mohamed-Rabie-2

https://www.encyclopedia.com/arts/culture-magazines/rabie-mohamed